الأستاذ بيرم كمال

مقياس المجتمع وفعالياته

السنة الأولى ماستر حديث

المحاضرة 4

بنية المجتمع الريفي الجزائري خلال العهد العثماني

يتشكل المجتمع الجزائري في غالبية ساكنته من القبائل البدوية الريفية الموضع ،هذه القبائل كانت تمثلها اوطان صغيرة تتميز من خلالها عن الجوار القبلي الذي يلامسها وكانت تنتشر انتشارا افقيا من الشرق الى الغرب لذلك ذكرت وصنفت بقبائل الشراقة او القبالة وقبائل الظهارة او الغرابة ،في حين غاب مصطلح الشمال او البحري في هذه التصنيفات و[1]يطلق على القبيلة تسمية "العرش"، والمسيرة من طرف أحد القياد فهي عبارة عن مجموعات صغيرة من السكان، تعرف بالخروبة، ويكون رأسها أخد الشيوخ، وتنقسم بدورها إلى دواوير[(2)].ويمكن تعريفها بالجماعة البشرية التي تربط بين أفرادها مجموعة من الصلات تكون وحدة عضوية تتشابك فيها عناصر القرابة الدموية احيانا والتي تعرف بالنقمة، فالقبيلة يمكن أن تضم بعض المئات من الأفراد أو عشرات الآلاف، ويمكن أن تقوم كوحدة سياسية متماسكة ومستقلة في تنظيم حياتها وتعاملاتها وتحالفاتها كما يمكن أن تكون منخرطة مندمجة ضمن مجموعة سياسية أوسع إما في شكل صفوف قبلية أو ولاءات سياسية مخزنية[(3)].فهم جميعا يعيشون في الجبال، في الأطلس الكبير وفي مختلف السلاسل التي تتفرع عنه والتي تحمل أسماء عربية مثل بني سنوس، وبني زروال، وبني زواوة، وبني عباس، وكلمة "بني" في العربي تعني ينحدرون من أصل كذا[(4)].وسكان كل منطقة من هذه المناطق الجبلية يشكلون دولة أو جمهورية مستقلة عن غيرها من المناطق وهذا الشعب يسمى أيضا "البربر" ومن هذه الكلمة اشتقت لكمة "بارباري" ولكن هذه التسمية ليست سوى مصطلحا تاريخيا قديما [(5)] وغالبا ما يجتمع تحت حكم قائد واحد العديد من القبائل[(6)].وتختلف مجموعة القبائل عن باقي السكان العرب لا من حيث لغتها فقط وإنما أيضا من حيث عاداتها وأسلوب معيشتها وهم يعتبرون السكان الأصليين للبلاد، وقد حافظوا على استقلالهم فلم يخضعوا للفاتحين من عرب وأتراك بل التجأوا إلى المناطق الجبلية حيث تحصنوا بها كما ذكرنا

---

[1] للمزيد يرجع الى bourdieux,pierre :sociologie de l’Algérie p u f 1979

[2] - سعيدوني: ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص 157.

[3] - جمال بن طاهر: المغرب العربي الحديث من خلال مصادره، مركز النشر الجامعي، ميدياكوم، 2003، ص 195.

[4] - شالر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

[5] - شالر: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

[6] - سعيدوني: ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص 157.

سابقا[7]. ومما يميز القبائل أنهم كانوا ينزعون إلى الاستقلال والحكم ذي الطابع الجمهوري ويفضلون السكن بالمنازل ويعرفون صناعة النحاس والحديد والأسلحة والبارود كما كانوا ينسجون من الصوف الأغطية "الحياك" والبرانس الرفيعة، وقد اشتهر في ذلك بنو عباس بزرابيهم الجميلة(.فضلا عن أن القبائل كانوا يتفوقون على العرب في الأعمال الفلاحية، وخاصة زراعة الزياتين[8].

والقبائل يتحدثون لغة كل شيء يدل على أنها لغة قديمة أصلية.تسمى لغة الشلح، أما الحنانشة فهي مجموعة أخلاف قبلية من أرومة عربية وتضم العديد من العناصر البربرية المستغربة، مركزها سوق أهراس على وادي مجردة بالقرب من الحدود التونسية، وكانت قبيلة الدواودة العربية قد استوطنت الزاب الجنوبي الذي يتكون من نواحي بسكرة وجهات الحضنة الشرقية، رؤساؤها من أسرة أبي عكاز، ولقبت رؤساؤها بشيوخ العرب(.إن هذه القبائل تخضع من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لشيخ أو قائد القبيلة المعين من طرف الجماعة وتشكل الجماعة مجلس شيوخ الأسرة الأداة التي تؤثر على القريبة وأسواقها(.

ولقد وجدت أمثلة كثيرة على اختلاف المناطق غير أننا سوق نقتصر على ذكر نموذج هو أكثر وضوحا في الإقليم القسنطيني.

- بلاد القبائل: في بلاد القبائل تكون الوحدة السياسية والاجتماعية الأساسية هي القرية وتتكون القرية من عدة ضيعات صغيرة وهي عدة منازل لعائلة الأسرة موضوعة على رأس جبل والتي تمتد على مرتفع ولكن القرى تحسن الضعف حيث تعيش بمناطق عن بعضها البعض منعزلة.إن هذه القرى بإمكانها أن تكون قبائل "عرش" والمجموع الكبير للقبائل ينتهي إلى كنفدرالية التي تمثل الشكل الأقصى للاندماج، ولقد كان استقلال القبائل القانوني والإداري عن السلطة البايكلية ولذلك نجد مجلس القرية هو الحاكم في حالة الخلافات حول الثروة وهم الذين وحدهم يسمحون لشخص ما أن يستوطن بين أحضان القبيلة كما يقومون بتوزيع الأراضي(

والقبائل في الجزائر العثمانية تختلف من حيث الأصل فهي:

1-القبائل العربية:

كان لبلوغ العشائر الهلالية في بلاد المغرب في القرن الحادي عشر ميلادي أثر كبير على المنطقة إذ أدى إلى امتزاج العرب بالبربر كامتزاج الهلاليين بالزناتيين مكونين بطون رئيسية اسمها عربي و أصولها بربرية مثل : بطون الأثبج التي أصبحت لها سيادة على الحضنة و الزيبان و فروع الذواودة المنتمين إلى رياح .، وعلى هذا يمكن تقسيم الأعراش **حسب العرق إلى ثلاثة أنواع هي :**

-1 القبائل والأعراش البربرية :

---

[7]- سعيدوني: ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص 175.

[8]- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

كعرش بني ورصوص الذي يوجد بشمال غرب تلمسان و يبعد عنها حوالي 60 كم موزع في صفصاف حوض التافنة و أصوله تعود إلى بقايا القبيلة البربرية أولهاسة(أولحاسة) و و يسكنون في منازل مبنية بالحجارة و الطين ، وبعضها مغطاة بالقرميد المحلي و بعضها أكواخ مغطاة بالحشائش ، وكانوا مستقلين أثناء العهد العثماني وكانت علاقتهم مع جيرانهم من الأعراش الأخرى متقلبة حسب الروايات المتوارثة ..

2-1-2 الأعراش العربية :

كأعراش أولاد نايل وهي أكثر قبائل الصحراء الجزائرية ، وأكثرها عددا وتنتسب كما يتواتره أبناء هذه القبيلة و القبائل المحيطة إلى الأشراف الأدارسة بالمغرب الأقصى و يذكرون أن جدهم الأول الشريف نايل بوكحيل الإدريسي سكن في صحراء المغرب بعد سقوط الدولة الإدريسية وتشتت أشراف الأدارسة ومنهم الشريف نايل بوكحيل الذي لما ضاق به العيش نزح إلى منطقة الجلفة على مشارف الصحراء الجزائرية كما يطلق على أعراش أولاد نايل **بيت الكحيلة** أي بيت الشعر وهو رمز أصلهم الشريف و ينقسم أولاد نايل إلى أربعة بطون: أولاد أم لخوة ، أولاد عيف ، أولاد الأعور و أولاد سي محمد المبارك .

3-1-2 الأعراش البربرية - العربية :

كعرش بني إسماعيل يقع في شرق بجاية وجنوب أوقاس وحسب الأخبار المتوارثة فإن بني إسماعيل من سلالة أحد المقربين للسلطان مولاي الناصر الحمادي حاكم بجاية في القرن الحادي عشر ميلادي ، وعندما ساءت علاقته بالسلطان خاف إسماعيل من بطش السلطان وهرب إلى وادي أقريون و استقر فيه نهائيا و ترك ثلاثة أولاد و إليهم تنتسب الفرقة المعروفة (سنة 1894م) بأولاد علي ومحمد ، وأولاد عبد الله ، وهناك فرقتان من نسب آخر أولاد شيوت وأولاد تسكر يون ، وأصولهم خليط من البربر و العرب مساكنهم من أشجار الغابة ، وهم بطبعهم متمردون ينقادون بسهولة لكل ثائر وكانوا مستقلين في العهد العثماني .

: أنواع القبائل حسب علاقتها بالعثمانيين:

تندرج علاقة الأعراش بالسلطة العثمانية في إطار علاقة الريفي ككل بالسلطة العثمانية وقد كان هناك فرق شاسع بين مجتمع المدينة ومجتمع الريف ، فالنظام الإقطاعي الذي دعمه العثمانيون قد جعل سكان الريف في آخر القائمة الاجتماعية. .

ويمكن معرفة أنواع الأعراش حسب ردود فعلها اتجاه السياسة العثمانية و التي كانت تمارس اعتمادا على عدة معطيات لعل أهمها الاعتبارات الدينية و الأهداف السياسية المتوخاة من ذلك و يمكن تقسيم الأعراش حسب علاقتها بالسلطة العثمانية في الجزائر إلى:

-2 الأعراش المتمردة (المستعصية) :

وهي الأعراش البعيدة عن مركز الحكم وتسكن مناطق ظلت ممتنعة عن سلطات البايات وفي أغلب الأحيان فهي تتكون من الجهات الجبلية الحصينة ، حيث تعيش الأعراش الممتنعة في شبه استقلال تمام فهي لا تتعامل مع الحكام إلا من خلال شيوخها ومرابطيها ولا تتصل بسلطات البايلك إلا عند تعرضها للحملات الفصلية التي تقوم بها المحلة المعززة بفرسان المخزن في فصل الخريف و الربيع في كل سن .

وكانت هذه الأعراش لا تدفع الضرائب إلا بالقوة ، وهو ما كانت تعتبره هذه الأعراش غرامات حربية و تعتبر أعراش الشمال القسنطين من هذا الصنف وكذلك الجنوب ابتداء من تقرت حتى واد سوف و أعالي جبال الأوراس وجميع هذه الأعراش لا تعترف بسلطة غير سلطة شيوخها وتفاديا للصدام مع هذه الأعراش كان البايات يتركون حرية التصرف لشيوخ الأسر الحاكمة بهذه المناطق و يقنعون بما يدفعه هؤلاء من ضرائب .

ومن بين الأعراش المتمردة نجد عرش بنيتوفوت جنوب القل فإن هذا العرش تعرض عدة مرات لحملات عسكرية قادها البايات أنفسهم لإخضاعه لسلطانهم لكنها فشلت.

كما توجد أعراش متمردة نشأت نتيجة تجمع العصابات و المجرمين و الخارجين عن القانون كعرش بين فليق الذي ينشط بمنطق آزفون الذين كانوا يمتهنون سرقة الماشية وقطع الطري.

3-2-2 الأعراش الرعية :

وهي الأعراش الخاضعة لمختلف أنواع الضرائب الشرعية و الإضافية و يدخل ضمن هؤلاء الفلاحون و التجار الصغار و الحرفيون و غيرهم من العمال المستغلون في الأعمال الفلاحية و الصناعية العامة سواء بالريف أو المدن ولم يكن هؤلاء يخضعون لضغوط السلطة الحاكمة فحسب بل كانوا تحت ضغط الإقطاعيات المحلية و التركية التي تكونت من أسر البايات و الموظفين السامين .

وأقسى ما كانت تخضع له هذه الفئة من الأعراش هي ضريبة الضيفة التي تحتم على الفلاح تحمل قساوة رجال المحلة الذين حسب الرحالة peyssonnel كانوا يقصدون أحسن خيمة فيشاركون صاحبها فراشة وأكله و

يأخذون أحسن ما عنده دون أن يسمح له بالاحتجاج بل كان يتحمل منهم أبشع الإهانات و الإذلال ولم يكن أمامه غير الصبر و انتظار ساعة رحيلهم .

1-2-2 الأعراش المخزنية :

يمكن تعريف هذه القبائل بأنها مجموعات سكانية لها صبغة فالحية وعسكرية وحتى إدارية لما تقوم به من أعمال وتؤديه من أدوار وهي ال تعود في أصولها إلى نسب واحد أو أصل مشترك بل هي في الواقع تجمعات سكانية تعميرية ذات تكوين فمنهم العبيد والكراغلة وعرب الصحراء وسكان الهضاب العليا والجبال ويمكن القول بأنها أألهالي في أألرياف والحكم في المدينة ، هذا وقد ظهرت عشائر حكم الموحدين (2(تشكل حلقة وصل بين وحافظ عليها الحكام أألت ارك بل أعطوها صالحيات واسعة خاصة مع أواخر القرن السابع عشر ميالدي بهدف وكذلك استخالص الجباية من سكان (3(القيام بخدمات ومهام كانوا في الحاجة إليها مثل ضمان أألمنواالستقرار الريف كان يوجد بين هذه القبائل سكان فرسان ممتازون يتمتعون بكثير من الشجاعة والمهارة فعندما يركب الواحد منهم ال يتردد في محاربة عشرين أو ثالثين شخصا وكان لهؤالء السكان القدرة على رد الهجمات وكانوا معروفون وانتشرت القبائل في البيالكالثالثة) القبائل المحلية العريقة(،والقبائل غير المتجانسة والتي تنحدر .)1(بعزة النفس من أصول مختلفة، أما الصف الثالث فيتكون من بعض القبائل الممتنعة أو المتنقلة والتي أرغمت عن طريق القوة فكانت تتمركز بصفة خاصة في أألراضي الزراعية السهلية (2(على الدخول ضمن قبائل المخزن، ودار السلطان ..بالقرب من أألبراج

وكانت تقيم قبائل المخزن في يسر و الخشنة وبني سليمان وسور الغزالن وعريب وبرج

حمزة فمنها ما كان تابعا إداريا لهذا السلطان ومنها ما كان خاضعا لبايلك دار السلطان(وقسنطينة

، كما كانت الطرق المؤدية من قسنطينة إلى مدن البيالك مثل جيجل، وعنابةوبسكرة، وتبسة، وباتنة تحت حراسة قبائل الزمالة والدوابر، وكانت فرقة الزمالة المرابطةبسمل عين مليلة على الطريق الرابط بين قسنطينة وباتنة.

وهي الأعراش الموالية للسلطة وتكون عادة معفاة من الضرائب وإن كانت هذه الأعراش تختلف من حيث الامتياز الممنوح لها فإما أن تخفف عنها الضرائب فقط وإما أن تعفى منها نهائيا ، ويصل الأمر أحيانا إلى السماح لها بممارسة نفوذها على منطقتها ، فمثلا سمحت السلطات العثمانية لشيخ منطقة بلزمة بممارسة نفوذه على منطقته و القيام بجمع الضرائب المفروضة عليها وهي ضرائب عينية تتكون أساسا من المواشي و الحبوب إضافة إلى بعض الضرائب النقدية التي تخص بعض السكان الممتنعين عن سلطة البايلك في بعض النواحي الجبلية الحصينة وهؤلاء لم يكونوا يدفعون ضرائب إلا تحت تهديد الحملات الانتقامية التي كان يشنها عليهم فرسان المخزن من حين إلى آخ

وكانت سياسة البايلكالجبائية تعتمد أساسا على التأييد الحربي لبعض القبائل و الأعراش مثل تجنيد أولاد بوعون و إعطائهم بعض الامتيازات أو على معاضدة بعض العائلات النفوذ المعنوي و الروحي مثل عائلة أولاد سيدي أحمد بن بوزيد و التي تم إعطائها مكانة ومعاملة خاصة مع إسقاط المطالب المخزنية عنها وتم ذلك كله فقط لاعتبارات دينية و أهداف سياسي.

وقد كان من الأعراش المخزنية عرش بني أحمد الذي يقطن في جنوب شرق مليانة وأصلهم بربرعرب وأتراك وحسب تقرير فرنسي نشر في الجريدة الرسمية الفرنسية بتاريخ 16 أكتوبر 1896 فقد كان عددهم حوالي 3350 نسمة يملكون 12528 هكتار كما يملكون أكثر من ثلاثين ألف رأس من الحيوانات يسكنون في 149 منزلا من الطين والحجارة و 964 خيمة من الشعر وهم من الأعراش المقربة من باي التيطري " المدية " لأن العرش كان يمدهم بالفرسان عند الحاجة وكانت علاقتهم مع جيرانهم متوترة بسبب جمعهم للضرائب لحساب الباي.